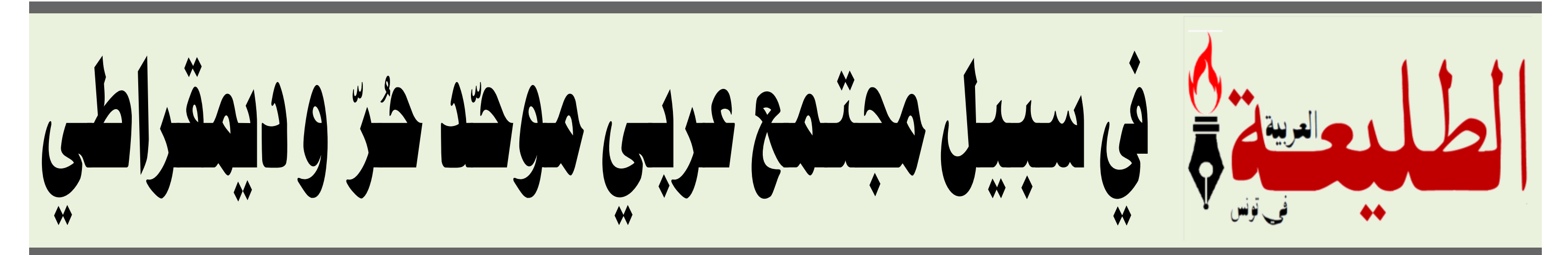
د.وجيه فانوس

مستلزمات النهوض العربي في زمن العولمة



منشورات الطليعة
تونس 2004



مستلزمات النهوض العربي
في زمن العولمة

د. وجيـــه فانـوس
بيروت 2004

تمهيد

ثَمَّة واقع معاصر لن تنفع أيَّة مكابرة في نفيه أو الالتفاف على حقيقته؛ إنَّه واقع التغيُّر السَّريع الذي يجتاح مجالات العيش في هذا العالم، إلى درجة يكاد ينتفي معها ما تعوَّد الناس على اعتباره ثباتًا أساسيًا في السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع، بل حتَّى في الفكر والثَّقافة.

ينظر بعض المراقبين إلى هذا التَّغيُّر من خلال عدد من الزوايا السياسية أو الحضارية أو المعرفيَّة، ومن هذه الزوايا مايقود إلى حديث عن أمور منها «العَوْلَمَة» أو «تَحَقُّق القرية الكونيَّة» أو «حضارة المعلوماتيَّة». ويميل بعض المُحللين، من جهة أخرى، إلى رؤية هذا التغيير على أنه «أَمْرَكَة» للعصر تفرض رؤية الولايات الأمريكية المتحدة للعالم ومصالحها على كل الدُّول والنَّاس.

وكيفما دار الأمر، فإنَّ المتغيِّرات في الزَّمن الرَّاهن أصبحت أقوى من كل مظهر للثبات، حتَّى لكأن العالم المعاصر ما عاد يعرف حقيقة وجهه؛ أو لعلَّه أيقن ألاَّ حقيقة ثابتة لما كان يعتبره وجهًا له ومقياسًا لوجوده. ولابد للجميع، والحال كذلك، من الوقوف أمام تحدي هذا الواقع والنَّظر فيه والسَّعي إلى مناهج للتعامل معه، إمَّا لمصلحة لهم في استمراره وانتعاش آفاقه؛ أو رغبة منهم في القضاء عليه وتبديد قواه. لكن، ما من عمل إلاَّ ويتطلَّب تحديد منهج له؛ والمنهج، في هذا المفهوم، يتحمَّل قسطًا كبيرًا من نجاح العمل أو فشله أو حتَّى تعثُّره. لذلك، فالأهميَّة الكبرى التي يواجهها العرب في هذه المرحلة ليست فقط في تحديد موقف لهم من «العولمة» وسواها من قضايا العصر وتحدياته، بل تحديد المنهج الصَّالح الذي يكفل نجاح ما يريدون عمله وتحقيقه.

لعلَّ من أبرز صفات المنهج المطلوب لهذه المرحلة، من المتغيرات غير المحدودة، أن يكون قادرًا على مواجهَة المتغيرات، وهي متغيرات غير عاديَّة الإيقاع على الإطلاق. إنها متغيرات سريعة سرعة وسائل التواصل المعاصرة، وعنيفة عنف ما بات العلم يحققه بين ثانية وأخرى من أمور لايكاد يفرغ المرء من الاندهاش بأحدها حتَّى تأتي دهشته بما يليه أشد صَعْقًا وإذهالاً.

وثمَّة تَحَدٍّ، آخر وأساسي، ينهض في هذا المجال أمام كل عربي يعيش زمن عُهْرِ الغصب الصهيوني للأرض العربيَّة وخيراتها ومستقبلها؛ إنه التحدي المفروض على الانتماء والهُويَّة والمحافظة على الوجود. ومن هنا، لابدَّ من قيام منهج فكري عملي، قادر على الاسترشاد بالماضي وما قام عليه من أسس الثَّبات، لما لهذا الماضي من ارتباط عضوي بمفاهيم الانتماء والهويَّة والوجود؛ لكن من غير أن يُبْنى هذا المنهج العتيد على ثباتيَّة سيرورة الماضي بالذَّات، لما لهذه الثباتيَّة الماضويَّة من إعاقة لحركيَّة المعاصرة. فالمتغيرات المعاصرة تفرض منهجًا مرنًا قادرًا على فهم حركيتها، وقادرًا، كذلك، على التحاور معها، وقادرًا، أخيرًا وليس آخرًا، على حفظ هويَّة ناسه وشخصيتهم ضمن تفاعل بنَّاء لهم مع واقع العصر وحركته؛ في زمن صهيوني عالمي دَيْدَنُه إلغاء كل ما هو غير عربي وإسلامي، بل كل ما هو آخر.

دراسة حقليّة:

من هنا، يمكن اعتبار القرن العشرين مجالاً مُيَسَّرًا لدراسة نماذج من التفاعل العربي المعاصر مع حركة الحياة وتطوُّراتها؛ كما يمكن، لهذا القرن، بما حفل به من نوعيَّة أحداث ومسالك فعل، أن يشكِّل مصدرًا عمليًا لاستخراج دروس عن مناهج العرب في تفاعلهم مع الحياة المعاصرة.

يمكن النَّظر إلى مسيرة الحياة العربيَّة، بناء على هذا، من خلال أربع محطات أساسيَّة:

١) الحكم العثماني

٢) الانتداب الغربي والحرب العالمية الثانية

٣) مابعد الحرب العالمية الثانية وحتى انهيار الاتحاد السوفياتي

٤)- ما بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، وبدء فرض سياسة القطب الواحد، ممثلاً بالولايات المتحدة الأمريكية، على العالم.

محطة الحكم العثماني

لئن استمرَّ الحكم العثماني للمناطق العربيَّة ما ينوف عن خمسة قرون، فإنه احتل من حياة العرب، حوالي العشرين سنة الأولى من سنوات القرن العشرين. لقد غربت الشمس السياسية لهذا الحكم بين سنتي ١٩١٨و ١٩٢٠، إذ أعلن توقف الحملات العسكرية للحرب العالمية الأولى وبدء اتّخاذ الإجراءات الدَّولية لنهاية الارتباط السياسي بين المنطقة العربية والحكم العثماني.

كانت المنطقة العربية، خلال السنوات الطويلة لهذه المحطة التاريخية من حياة العرب، تشكل وجودًا قوميًا ضمن القوميات المتعددة التي تألفت منها شعوب السلطنة العثمانية. وكان ارتباط المنطقة العربية، بمن في السلطنة، يتم عبر طريقين نوعيين: واحد يمتد مباشرة إلى العاصمة السياسية «اسطمبول»، وآخر ينتقل بين سائر المناطق والقوميات التي تشكل العناصر الدمغرافية للسلطنة؛ مع الإشارة إلى أيًا من أطراف هذه الخطوط لم يجد أي تعارض أو تناقض بين الخط الذي يمثل والخط أو الخطوط الأخرى التي يتفاعل معها مباشرة، أو يتفاعل مع الآخرين، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، عبرها. ف «اسطمبول» مثَّلت في هذه المعادلة مركزية السُلطة، في حين إن الولايات العثمانية مثَّلت التنوُّع الفاعل ضمن تلك المركزيَّة.

اسطمبول	⟺	العرب	⟺	الولايات المتحدة
(وجود مركزي)		⟷		(وجود متنوع)
		(عدم تعارض)		
		منهج متعدد الخطوط		

والملاحظ أن العلاقة بين العرب والآخرين، ههنا، لم تكن علاقة ضمن نسيج

من خط أو خيط واحد، بل كانت علاقة تقوم على نسيج شبكي يتألَّف من عدة خطوط أو خيوط. فالارتباط بين العرب والإدارة السياسية المركزيَّة في «اسطمبول» كان خطًا واضحًا، لكنه كان واحدًا ضمن خطوط أخرى تربط بين العرب وبقية شعوب الولايات العثمانيَّة المتعددي الإثنيات واللغات والديانات. ومن هنا، فلقد تعامل العرب، في هذه المرحلة، مع محيطهم السياسي والدمغرافي والحضاري والاجتماعي، عبر نظام أو منهج متعدد الخطوط وليس عبر منهج أحادي الخط.

ظهر نجاح هذا المنهج في عدد من الوجوه العمليَّة التي انتظمت الوجود العربي طيلة سنين هذه المحطَّة وما سبقها من عقود بل قرون. ولعلَّ من أبرز الأمثلة على هذه الوجوه ما يشهد له التَّاريخ العربي من وجود لمنطقة عربيَّة واحدة، لاحدود سياسيَّة تفصل فيما بينها. وهي منطقة أثبتت قدرة واضحة على التفاعل الإيجابي فيما بينها ومع ما كان يحيط بها ويجاورها من أراض تابعة للسلطنة العثمانيَّة. ومن النَّاحية الاقتصاديَّة فقد تجلَّى هذا الأمر في وجود تجارة حرَّة متنقلة بين الأقطار العربيَّة كافَّة، فضلاً عن حركة واسعة لرؤوس الأموال العربيَّة ضمن هذه المنطقة.

أمَّا على الصعيد الاجتماعي، فقد برز الأمر من خلال انفتاح اجتماعي بين العرب تمظهر في تأسيس أسر، من أصول مناطقيَّة مختلفة، في مناطق جديدة عليهم. ومن هنا يجد الباحث عددًا كبيرًا لعائلات استقرَّت في مدن ومواقع غريبة عنها؛ فعرفت، خارج المكان الجغرافي الذي تنتسب إليه، عائلات مثل الدمياطي والجزائري والتونسي والبيروتي والمصري والجيزي والصيداوي والطرابلسي والشامي والنابلسي والصفدي والمغربي والبغدادي، فضلاً عن الأرضروملي والداغستاني والإزمرلي والعنتبلي والإستانبولي وسواها.

وعلى الصعيد الفكري والثقافي العام، فقد شهدت البلدان العربيَّة حركة واسعة ونشطة لمفكرين عرب تنقلوا بأفكارهم من بلد إلى آخر، وتمكنوا من ترك بصمات واضحة لهم ليس على مستوى البلد الذي انطلقوا منه وحسب، بل على مستوى البلدان التي أقاموا فيها وسائر البلدان الأخرى. ومن هؤلاء يمكن للباحث أن يذكر أحمد فارس الشدياق، اللبناني القادم من حدث بيروت، وقد صار من أبرز رجالات الفكر والصحافة على مستوى العالمين العربي والعثماني في عصره. وبطرس البستاني، المبشر البروتستانتي، الذي أسس في بيروت مدرسة أسماها «المدرسة الوطنيَّة» وليس المسيحيَّة أو البروتستانتيَّة، وكان في عداد أفراد الهيئة التدريسيَّة فيها المسلمان الشيخ أحمد عبَّاس الأزهري والشيخ يوسف الأسير إلى جانب المسيحي

ناصيف اليازجي. أمَّا سليمان البستاني، وهو المسيحي اللبناني من بلدة الدبيَّة، فكان وزيرا للأحراش والمعادن في حكومة الباب العالي في «اسطمبول»، وامتدت سلطته الوزاريَّة على أرجاء السلطنة كافَّة. وليس آخر هؤلاء شكيب أرسلان، اللبناني من الشويفات، الذي كان من أشهر دعاة الخلافة العثمانيَّة في كل أرجاء السلطنة.

ومن الواضح أن هذه الممارسات، وأمثالها، شهدت لنجاحات كثيرة تمثَّلت بسعة أفق الطموحات والأعمال والنتائج، مع التَّأكيد بأن ثمَّة وجود سياسي وعسكري قمعي كان يخيِّم بكلكله عليها ويقف في مرات كثيرة في وجهها. فلم يرتبط نجاح العرب أو فشلهم، في هذه النماذج، بنوعيَّة الحكم السياسي؛ إذ يبقى الحكم السياسي، وباستمرار، موضوعًا خلافيًا لن يمكن البت فيه بسبب ما يقوم عليه من أمور وما يرتبط به من أمور تبقى محطَّ إشكاليَّات وتأويل من قبَلِ الموالين والمعارضين فضلاً عن الدَّارسين والمحللين. ولذا، لابدَّ من النَّظر في عناصر الفشل أو النَّجاح من خلال منهجيَّة العمل التي تمكَّن عرب هذه المرحلة من ممارستها وتحقيق وجود لهم من خلالها.

لقد استطاع العرب أن يحققوا وجودًا خاصًا بهم عبر هذا المنهج المتعدد الخطوط؛ وعرف هذا الوجود حالات كثيرة جدًا من النجاح والتَّألق. فتمكَّن كثير من العرب من أن تكون لهم أيد مؤثرة في «اسطمبول»، ضمن المجالات السياسية أو الإدارية، وأن تكون لهم، كذلك، فاعليَّة مميَّزة على الأصعدة الفكريَّة والثقافيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة في سائر مناطق السلطنة وولاياتها ومع ناسها على اختلاف قومياتهم.

محطة الانتداب الغربي والحرب العالمية الثانية

تبدأ المحطة الثانية مع سنة ١٩٢٠، تاريخ ممارسة بعض الدول الغربيَّة انتدابها على المنطقة العربيَّة. وهكذا، وعلى سبيل المثال وليس الحصر، كان على جزء من المنطقة العربيَّة أن يكون ضمن علاقات مع فرنسا، وآخر مع بريطانيا، وثالث مع إيطاليا؛ مع الأخذ بعين الاعتبار بعض التحالفات التي كانت لبعض العرب مع ألمانيا وروسيا وسواها من الدول الفاعلة في تلك المرحلة.

فرنسا	عرب سورية ولبنان
إيطاليا	عرب ليبيا
بريطانيا	عرب فلسطين والعراق ومصر والسودان
ألمانيا/ روسيا	قوى سياسية في العراق ومصر وسورية ولبنان وفلسطين
	تعارض
	منهج ضمن خط واحد محصور

لقد فرض منهج التعامل بين خطين محصورين نفسه على الجميع. فمن كان ضمن أحد الخطوط المشكِّلة لواقع تلك المرحلة، وجد نفسه في مواجهة مع من كان في خط آخر مختلف. ولقد تجلَّى هذا الأمر عبر عدة مراحل من أبرزها مرحلة الحرب العالمية الثانية وما سبقها ورافقها وتبعها من تصنيفات سياسيَّة أوروبية. فمن كان ضمن تبعيَّة الانتداب مع الفرنسيين وجد نفسه، في كثير من الأحيان، في تباين سياسي وثقافي مع من كان ضمن تبعية الانتداب للبريطانيين؛ وكذا الحال مع من كان ضمن تبعيَّة الاستعمار الإيطالي، أو كان في تحالف ما مع ألمانيا أو روسيا. وضمن محاولات تثبيت التبعيَّة أو التَّحرُّر منها، وجد ناس المنطقة العربية أنفسهم وقد توزَّعوا ولاءات أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية؛ فوالى قسم منهم المحور، وكان عليه أن يتصدى سياسيًا وعسكريًا لمن والى الحلفاء؛ والعكس صحيح أيضًا. أمَّا النتيجة المتحصِّلة فكانت انقسام المنطقة العربية وناسها، في هذه المحطة، إلى ولاءات متباينة فيما بينها، أو هويَّات سياسيَّة خارجيَّة متعارضة في كثير من الأحيان.

ما بعد الحرب العالمية الثانية وحتى انهيار الاتحاد السوفياتي

وجد ناس هذه المنطقة أنفسهم، بعد إعلان استقلال دول المنطقة العربية، قبيل نهاية الحرب العالميَّة الثانيَّة وما تلا هذه النهاية، خلال سنوات العقود الأربعة الأولى من النصف الثاني من القرن العشرين، وقد توزَّعوا، راضين أو مرغمين، ضمن ولاءين أساسين؛ فإمَّا أن يكون الواحد منهم ضدَّ السياسية الامبريالية الأمريكية، مع السياسة الماركسيَّة والاشتراكيَّة للاتحاد السوفياتي ودول المنظومة الاشتراكية؛ أو ضد السياسات الماركسية والاشتراكيَّة هذه، مع الولايات المتحدة الأمريكية ومن يدور في فلكها من دول المجتمع الرَّأسمالي.

المنظومة الشيوعيَّة والاشتراكية ← العرب → المنظومة الراسمالية

(الاتحاد السوفييتي) ←——→ (الولايات المتحدة الأمريكية)

تعارض

منهج ضمن خط واحد محصور

ويتمظهر الحصاد العملي للمنهج الخَطِّي، الذي عاشه العرب في هذه المرحلة، في عدد من النتائج التي منها رسم حدود تفصل أجزاء الكيان العربي عن بعضها، مما ساهم في تكوين مظاهر لتمايز سياسي وفكري انجذبت إليه الأنظمة السياسيَّة التي كانت تتولَّى السُّلطة في كل واحد من هذه الأجزاء. ومن جهته، فقد ساهم هذا الأمر في تكوين منطلقات لبعض مجالات العداء السياسي الظاهر أو الباطن بين كثير من أجزاء المنطقة العربيَّة.

وكان من بعض محصّلات هذه الحال أن باتت الحدود بين معظم الدُّول العربيَّة فرصة لفرض تأشيرات سفر مُسبَقَة تُطلَب ممن يرغب في زيارة هذه الدَّولة العربيَّة أو تلك من عرب الدُّولِ الأخرى؛ وتبع هذا ضرورة استصدار رخص عمل وتجارة تُفرَض على العرب الذين لايحملون جنسيَّة الدَّولة التي يعملون فيها.

أمَّا على الصَّعيد الثقافي، فقد كان لهذا المنهج الخطِّي أن شهد لمشاريع ثقافيَّة عربيَّة بشَّرت ببعض خيرٍ في العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين، لكنها سرعان ما آلت إلى كثير من اضمحلال الفاعليَّة الحقيقيَّة والاعتماد شبه الكُلّي على ما يمكن أن يُعتبر استيرادًا مباشرًا وفجًا لنتائج التجارب الثقافيَّة في الغرب. فلئن أحسَّ المثقفون العرب بكثير من الأمل والانتعاش الثقافي والأدبي مع أفكار «الرَّابطة القلميَّة» و«جماعة أبولو» و«جماعة الدِّيوان» وبعض الصالونات الأدبيَّة والمنتديات التي ظهرت في العقود الأولى من القرن، فإنَّهم واجهوا كثيرًا من الضبابيَّة ومظاهر الفوضى الفكريَّة والتَّجريب والعبثيَّة في كثير جدًا من المشاريع والرؤى الثقافيَّة والأدبيَّة التي عرفوها بعد منتصف القرن العشرين.

ويشهد المستوى الوطني السِّياسي للعرب، في هذه المحطَّة، كارثة كبرى. تتجلَّى بداية الكارثة في تقسيم فلسطين، وتستمرُّ عبر سلسلة من التَّراجعات الكبرى بدءًا من سنة ١٩٤٨، تاريخ الإنشاء الرَّسمي للكيان الصهيوني الغاصب والاعتراف الدَّولي به. فلم يتمكَّن العرب من ممارسة رفض عملي لقرار التقسيم وإنشاء الكيان الغاصب، مما ساهم في تشريد عرب فلسطين عن أرضهم. ومن ناحية ثانية، لم يتمكَّن العَرب من المحافظة على ما تبقَّى من أرض فلسطين التي كانت بيد أبنائها العرب بعد الاعتراف الدُّولي بالكيان الصهيوني الغاصب،فخسروا الضَّفة الغربيَّة لنهر الأردن وغزَّة سنة ١٩٦٧، فضلاً عن تمكُّن إسرائيل من احتلال مساحات أساسيَّة من الأرض العربيَّة في سيناء والجولان وجنوب لبنان وبقاعه.

وتأتي «جامعة الدُّول العربيَّة»، التي كان تأسيسها أملاً عمليًا في قيام توحيد عربي ما، لتشهد، عبر مسيرتها الطويلة، على عدم تحقُّق هذا الأمل. ومن جهة ثانية، فعلى الرغم من تمكُّن العرب من تأسيس ما عرف بـ «مجلس الدفاع العربي»، فإنهم لم يستطيعوا تقديم أي دفاع عسكري فعلي عن أنفسهم عبر هذا المجلس أو بواسطته. ولعل كل هذه الأمور، وسواها، ساهمت في قيام اقتصاد عربي يعيش أزمات متنوعة، ويشهد اختلالات كبيرة في توازنه، ويقوم قسم كبير منه على المساعدات المباشرة وغير المباشرة من الدول الغربية وخاصة

الولايات المتحدة الأميركيَّة. وتبقى بارقة أمل هي الدُّرة الناصعة للعرب في هذه المحطة، حرب مجيدة خاضها الجيشان العربيان السوري والمصري ضد إسرائيل سنة ١٩٧٣؛ والملاحظ أن هذه الحرب لم تُخَض بمنطق المنهج الخطِّي على الإطلاق، بل كان خوضها من إيمان راسخ بحق الوجود، وحريَّة مطلقة في تنفيذ هذا الإيمان بعيدًا عن أي تَوَجُّهٍ يسعى إلى أي إرضاء لأيَّة قوة دوليَّة عظمى كانت أو صغرى.

ويشهد التَّاريخ أن العرب لم يتمكَّنوا طيلة هذه المحطَّة من تحقيق وجود عربي واحد فاعل لهم عبر هذا المنهج الخطِّي الذي سلكوه. تفرَّقوا، رغم محاولاتٍ لقيام «وحدات عربيَّة» فيما بين الدُّول العربيَّة، شيعًا وأحزابًا يمارض بعضهم البعض الآخر؛ وكم سعى كل فريق إلى نبذ الآخر، بل إلى تخوينه ورفض وجوده. فكانت الانقسامات العربيَّة بناءً للتبعيَّات الاستعماريَّة أو المصالح والأهواء الذاتيَّة؛ وكانت التَّفرقة، ونشوء كثير من الحدود الإقليميَّة المصطنعة والمسيَّسة لصالح الانتداب أو الاستعمار أو المصلحة الضيِّقة، وكان توجُّه واضح نحو ممارسات منغلقة باتجاه المحلي والإقليمي أكثر منها منفتحة باتجاه الكل العربي.

محطَّة ما بعد انهيار الاتحاد السوفياتي

تُعْلِنُ هذه المحطَّة عن وجودها بأنَّها مرحلة العَوْلَمَة السياسيَّة التي مركزها الولايات المتحدة الأميركيَّة. إنَّها، وبغض النَّظر عن أي اعتبار، عولمة معرفيَّة وثقافيَّة عامَّة ذات مركزيَّة ما مرتبطة بالعولمة الاقتصاديَّة التي تُنظِّر لها الولايات المتحدة الأميركيَّة وتعمل على تحقيقها بشتَّى الطُّرق، بما فيها الطُّرق الحربيَّة على اختلاف أنواعها وفنونها. وهنا وجد العرب أنفسهم في حال لاتدعو إلى أي اطمئنان، إذ هي حال شديدة الوضوح، لاتحتمل أي تمويه؛ وهي، كذلك، حال أعلنت عن وجودها منذ البداية ولم تخضع لأي محاولة ستر؛ فهي واقع جلي من إفراز العيش العربي المعاصر.

إن معظم الأنظمة العربيَّة وجدت نفسها منساقة مع رؤيَّة الإدارة السياسيَّة للولايات المتحدة الأميركيَّة للعَوْلَمَة، في حين أنَّ معظم الشعوب العربيَّة، إن لم يكن كلها، وجدت نفسها ضد هذه الرؤيَّة الإدارة السياسيَّة للولايات المتحدة الأميركيَّة. ولقد ساهمت هذه الحال في إحداث ضياع كبير في رؤيَّة الموقع الفعلي والعملي لتحقيق المصالح العربيَّة، أهو ضمن سياسة الأنظمة الحاكمة الموافقة للولايات المتحدة، أم هو عبر رفض الشعوب العربيَّة لهذه

الرؤية؟ وهكذا، برز تشوُّشٌ عربي عام، كما ازداد التَّراجع العربي السياسي والاقتصادي والعسكري وسوى ذلك من حقائق الوجود العربي.

العرب

↓

معظم الأنظمة العربية ⟷ العولمة الأمريكية # الجماهير العربية

؟

لامنهج

إذا كان كثير من الدَّاعين إلى العولمة يبشرون بمرحلة زمنيَّة يسقط فيها كثير من مفاهيم الطَّبقيَّة والقوميَّة، فلابدَّ من البحث عن الأسس الجديدة التي يتوقَّع أن يقوم عليها المقبل من الزَّمن، والتي يمكن أن تكون ملامحها قد بدأت تخط وجودها اليوم. ولعلَّ من أبرز ما خطَّته العولمة من ملامح، في المرحلة الرَّاهنة، اتِّهام ناسها وكثير من دعاتها للفكر العربي بأنه عدائي وأصولي؛ علمًا أن التجربة الحضاريَّة العربيَّة تثبت على مر العصور قابليَّة مميزة للانفتاح الحضاري والتفاعل الإيجابي البنَّاء. ومن الواضح أن هؤلاء يبنون اتِّهامهم على ما قام به بعض العرب إبَّان العقدين الأخيرين من القرن العشرين، اللذين شهدا عدم وضوح في منهج التعامل العربي مع العصر، من محاولات تثوير ورفض للواقع وسعي إلى التَّحرير.

وعلى هذا الأساس، يمكن القول إن أهم إفرازات الدعوة إلى العولمة كانت تنصب العداء لكل ما هو تثوير عربي ولكل ما هو سعي إلى التَّحرير والاستقلال أو حتى الانتفاض. وضع أرباب العولمة العرب في قفص اتِّهام واسع في مساحته المكانيَّة وعريض في مساحته الزمانيَّة؛ ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن قضبان القفص بدأت تهمُّ بالأمتداد لتشمل كثيرًا من أسس الماضي ومفاهيم الوعي ورؤى المستقبل.

لقد تسبب عدم اعتماد منهج واضح في التَّعامل، بكثير من الأمور الصَّعبة التي ما برح يعيشها العالم العربي. ولعلَّ ما يحصل حاليًا في العراق، وما نتج عن أحداث العراق في سائر الأقطار العربيَّة، لشاهد على هذه الصعوبة. من جهة ثانية، فإن ثمَّة بارقة أمل مضيئة في هذه المرحلة نتجت عن الانطلاق من الإيمان بالذات وحقوقها، وكانت نتيجة تناغم وتنسيق ودعم بين قوى الجماهير العربية ومن أدرك خطورة هذا الأمر ومصداقيته من قوى السلطة العربية؛ ولقد تجلَّت هذه البارقة في تَشكُّلَينِ لها مقاومين، الأوَّل في «الانتفاضة» والثاني في «دحر الوجود الصهيوني من جنوب لبنان».

خلاصة أولى:

يمكن استخلاص مسارات مناهج العمل العربي خلال المحطات السَّابقة كما يلي:

١)- مسار شَبَكي (منظومي) قبل سنة ١٩١٨؛ قاد إلى عدد لايستهان به من النجاحات العربية.

٢)- مسار خطّي من سنة ١٩١٨ وحتّى سنة ١٩٩٨؛ قاد إلى إحباط شبه شامل، خلا بعض اللمعات القليلة الناجحة.

٣)- مسار غير محدد الملامح من سنة ١٩٩٨ وحتّى اليوم، أدّى إلى إحباط امتدّ على أصعدة حياتيّة كثيرة.

العرب بين المنهج الخَطّي والمنهج الشَّبكي (المنظومي)

يقوم المنهج الخطّي على مقولة أساس تتمظهر في الاتجاه ضمن خط واحد، معتبرة أن أي خط سواه خطأ إن لم يكن، على المستوى السياسي والشخصي، خيانة. ومن هنا، كان الخيار الأبرز، في المنهج الخطي، بين «الأنا»، بكل ما تشتمل عليه وينجم عنها، و«الآخر»، بكل ما يشتمل عليه وينجم عنه؛ فكل ما هو خارج «الأنا» مرفوض، وكل ما هو «الآخر» خائن. وجد العرب أنفسهم، على هذا الأساس، أمام سلسلة من الاختيارات المحدودة والقاتلة في الآن عينه. محدودة، إذ هي مرتبطة بموضوعات معيّنة من دون سواها، وقاتلة، إذ هي من خارج حقيقة هوية العرب ووجودهم.

من النماذج الشّاهدة على هذه الحال، أن «عرب» الفرنكوفونيّة وجدوا أنفسهم ضد، أو على خصومة مريرة، مع «عرب» الأنكلوسكسونيّة؛ والعكس صحيح أيضًا. وكما الحال على المستوى اللغوي الحضاري، فهو كذلك على المستوى السياسي؛ فـ «عرب» الاتّحاد السوفياتي يُخَوِّنون «عرب» الولايات المتحدة الأميركيّة، والعكس صحيح تمامًا. ولايتغيَّر الوضع في المجالات الفكريّة عن هذا النَّسق من الفاعليّة والتفاعل، إذ «عرب» التقليد الفكري والأدبي، يُخَوِّنون «عرب» التّجديد الفكري والأدبي، والعكس واقع في كل حال. وخلاصة القول، فإنّ ما نجم عن هذا المنهج لم يتعدّ كونه تجارب عداء عربية ضد عرب، ومساعي إلغاء عربية لعرب آخرين.

وثمّة نموذج آخر، مؤلم، عن الفاعليّة العربية، عبر المنهج الخطّي، تتجلّى في بعض مظاهر التّعامل الرّسمي، الذي يغلب عليه التّراجع، مع قضيّة فلسطين؛ وهي القضيّة الأكثر حساسيّة وشعبيّة وخطورة في الحياة العربيّة المعاصرة. وكذلك، فإنّ الشّعارات والنّداءات العربيّة التي سادت الشّارع العربي تشكّل مرآة ناصعة مؤلمة لهذه التراجعات. فلئن كان الشّعار العربي الأشهر «تحرير كامل التراب الفلسطيني» ذاع وعمّ بين العرب منذ سنة ١٩٤٨، فإن شعار «الصلاة في المسجد الأقصى» انتشر سنة ١٩٦٧، وهو يظهر محدوديّة استراتيجيّة إذا ما قورن بالشّعار الذي

سبقه. أمَّا النداء الذي تلا، فكان «التفاوض على نسب معيَّنة من مساحة الضفَّة الغربيَّة لتكون تحت الإشراف الإداري المباشر للسلطة الفلسطينية»، وقد برز هذا سنة ١٩٩٤، ولعل لامجال للمقارنة بينه وبين سابقَيْه. وكان لسنة ٢٠٠٢ أن تشهد ظهورًا لنداء آخر، وإن كان مرحليًا، ومفاده «الموافقة الفلسطينية على إبعاد مناضلين فلسطينيين عن أراضي الضَّفة الغربيَّة لأنهم واجهوا الغصب الإسرائيلي في كنيسة المهد». وأخيرًا، وقد لايكون آخرًا، ظهر في الآونة الأخيرة «إصرار على تطبيق خارطة الطَّريق»!!

يستند المنهج الشَّبكي (المنظومي) إلى مقولة أساس، مفادها أنَّ تجربة العيش لايمكن أن تنتظم من خلال مسار واحد، بل هي جُماع عددٍ من المسارات المتعاونة والمتكاملة فيما بينها. ومن هنا، فـ«الأنا» لايمكن أن تكون إلاَّ بـ«الآخر»، كما أن «الآخر» لايمكن أن يكون إلاَّ بـ«الأنا». وإذا ما سعى المرء إلى امتحان هذا الأمر، من خلال ممارسات العرب للمنهج الشَّبكي هذا، فسيجد في علاقة عرب المناطق العربيَّة فيما بينهم، وعلاقة عرب الولايات العثمانية مع ناس الولايات العثمانية الآخرين، تجربة تحتضن كثيرًا من مبادئ قبول الآخر والتفاعل معه.

عملانيَّة المنهج الشبكي (المنظومي)

ثمَّة حقيقة متاتيَّة من المنهج الخَطِّي في التَّفكير، تتميز عبر مفهومي الصَّواب والخطأ؛ في حين أن الحقيقة المتأتية من المنهج الشبكي (المنظومي) تقوم على مفهوم العملانيَّة وحدها المرتبطة بالقابليَّة للتَّحقُّق والتَّنفيذ. ولقد اتضَّح في هذه المرحلة من العيش، وخاصة إبَّان العقود الثلاثة الأخيرة، أن مقياس الوجود في الزَّمن الرَّاهن يقوم على القدرة في تحقيق الفاعلية، بغض النَّظر عن مسبباتها؛ في حين أن مقياس الوجود في المرحلة السَّابقة لزمننا الحالي، قامت على الحدث المسبب للفاعليَّة.

يمكن القول، تاليًا، إن المعطيات «القديمة»، المُعْتَمَدَة في الماضي، لفهم طبيعة الأمور ومجالات حركيَّاتها، لم تعد قادرة اليوم على النُّهوض بما أنيط بها من مهام. لقد قامت على أسس من منهجية خطيَّة، في حين أن ما نعانيه اليوم، من نتائج للعيش والفكر، إنما يقوم على أسس شبكية (منظوميَّة). ومن الواضح أن منهج التفكير الشَّبكي (المنظومي) يُسقط، على المستوى النَّظري على الأقل، مقولة أن القوَّة العالميَّة لاتكون إلاَّ بيد الدُّول القويَّة، بل بات بالإمكان تحقيق كثير من هذه القوة عبر جماعات صغيرة قادرة على تنفيذ فعل القوة. وواقع الحال، وبغض النَّظر عن أي

موقف مؤيِّد أو معارض، فإن في نموذج أحداث ما يعرف بالحادي عشر من أيلول، وما لحق بها من دخول أميركي بريطاني إلى العراق، ما يؤيِّد هذه الفكرة. وانطلاقًا من هذا الفهم لعملانيَّة المنهج الشَّبكي (المنظومي)، ومن شاهد الحال في الزَّمن المعاصر، فإنَّ الدِّيمقراطيَّة، التي مورست من قبل ضمن مفهوم غلبة العدد، باتت اليوم تشهد ميلاً نحو ممارسة غلبة الفُرص الفاعلة على تلك غير القادرة على الفعل.

يقوم منهج التفكير الخطي على فهم الجزء ومعرفته، باعتباره المدخل الوحيد لفهم الكل. ومن هنا كانت الدعوة إلى تفكيك الكل، والتَّعرُّف إلى أجزائه. ولعل أبرز من نظَّر للتفكير الخطي كان ديموقريطس في اليونان القديمة، ثم ديكارت ونيوتن فيما بعد. أمَّا منهج التفكير الشَّبكي (المنظومي) فيقوم على أنه لايمكن فهم الأجزاء إلاَّ من خلال ديناميسية الكل. الكل أصل، فإذا ما كان ثمَّة فهم لديناميسية الأصل، بات من الممكن اشتقاق مبدئي لخصائص الأجزاء. لعل أبرز من شجَّع على اتباع المنهج الشبكي (المنظومي) كان علم الفيزياء المعاصر، ومنه برزت الدعوة إلى فهم الأجزاء من خلال السياق وليس فهم السِّياق عبر الأجزاء. فالسِّياق، في الفيزياء، هو المؤثر والمغيِّر لواقع فاعليَّة الأجزاء، وليست الأجزاء هي المؤثرة أو المغيِّرة لواقع فاعليَّة السِّياق. ومن هنا يمكن القول إن المنهج الشبكي (المنظومي) يتطلَّب متغيِّرات مستقلة، ذات تأثير ثابت على متغيِّرات ثابتة. ولقد كان أبرز المتحمسين لفكرة هذا المنهج الفيزيائي الألماني فرنر هايزنبرغ.

التفكير الشبكي (المنظومي) هو التفكير بالسيرورة وليس بالبنية، إذ سيرورة الأمر أو الشيء هي المنطلق والموجه وليست بنيته أبدًا. ومن هنا، لم تعد المعرفة قائمة على أسس تبنى عليها، فلطالما أثبت الواقع تكسُّر هذه الأسس وتغيُّرها. المعرفة تقوم على شبكة متَّسعة من العلائق؛ ومن هنا يعتمد الفكر الشبكي(المنظومي) منهج الشَّبكة، في حين يعتمد الفكر الخطي منهج البناء. وإذا كان المنهج الشبكي (المنظومي) لايقود إلى حقيقة ثابتة أو التعرُّف اليقيني عليها، فبالإمكان الوصول، عبره، إلى كثير من محطات الفهم التقريبي للحقيقة.

إن مراجعة متأنيَّة لمناهج التَّفكير عبر التُّراث الحضاري العربي تفيد، وبوضوح لافت، أن العرب مارسوا كثيرًا من فاعليتهم الإيجابيَّة النَّاجحة عبر منهج التفكير الشبكي (المنظومي) وليس عبر منهج التَّفكير الخطي. فحضارة العرب في مرحلة ما قبل الإسلام، وهي حضارة بنت معظم مداميكها، إن لم يكن كل هذه المداميك، على التِّجارة، لم تتعامل مع بيئتها

السياسيَّة والجغرافيَّة على أساس خطِّي يثبت طرفًا ويلغي آخر. إن عرب ما قبل الإسلام مارسوا التجارة في الصيف كما مارسوها في الشتاء، واتَّجروا مع الروم كما اتَّجروا مع الفرس أعداء الروم أو خصومهم السياسيين. وعرب المرحلة الإسلاميَّة أظهروا مقدرة لافتة في ممارسة فاعليتهم عبر المنهج الشبكي (المنظومي) حين اتَّصلوا بكثير من الحضارات والثقافات والأمم والشعوب المختلفة والمتباينة فيما بينها؛ ثم تمكنُّوا، بجدارة راقيَة، من ربط كل هذه الاتِّصالات، على مختلف نوعياتها ومستوياتها، لينشؤوا منها ما عرف في التَّاريخ باسم الحضارة الإسلاميَّة.

ومن جهة أخرى، فإن الدين الإسلامي بحد ذاته، وتحديدًا مناهج التَّفكير والتَّفاعل التي يطرحها النَّص القرآني، إنما هي مناهج شبكيَّة (منظوميَّة) في معظمها؛ وهي مناهج تدعو العقل الإنساني إلى تفاعل حي خلاَّق مع محيطه وبيئته وأمور عيشه ومتطلبات مستقبله. فالنَّص القرآني يحض على التَّفكُّر والرَّبط بين الأمور وعدم التعامل معها من جانب واحد مقيَّد بذاته. والأمثلة على هذا كثيرة وواضحة لكل من يسعى إلى درس في النَّص القرآني ومناهج التَّفكير فيه.

لقد أثبت الفكر العربي لمرحلة ما قبل الإسلام، كما الفكر العربي في المرحلة الإسلاميَّة، تمكُّن منهج التَّفكير الشبكي (المنظومي) من تحقيق نجاحات واسعة للعرب على كثير من المستويات التي خاضوا عيشهم وتفكيرهم فيها. فحقق لهم نجاحات اقتصادية وأخرى سياسيَّة، فضلاً عن النجاحات الفكريَّة والمعرفيَّة والثقافيَّة، وساهم في تبوئهم المكانة الحضاريَّة المرموقة التي احتلوها، زمنذاك، في مسيرة الأمم.

أثبت الفكر العربي في العقود الثمانين الأخيرة من القرن العشرين، أي في العقود التي نجمت عن مرحلة الانتداب الغربي على البلدان العربيَّة، وما رافق هذه المرحلة وتلاها من خطوات وسياسات استعماريَّة ونتائج تقسيميَّة وتوزُّعات مناطقيَّة وإقليميَّة قوميَّة، وما استغرق هذا كله من منهج تفكير خطي بياني، ضعفا مزريًا في تحقيق نتائج تفوق عملي على مستويات العيش العربي كافة، وخاصة الاقتصاديَّة والسياسيَّة والعسكريَّة منها، فضلاً عن تلك الفكريَّة والمعرفيَّة والثقافيَّة.

خلاصة ثانية:

لعلَّ بالإمكان القول إن حضاريَّة العرب، المنبثقة من منهج التَّفكير الشبكي (المنظومي)، والظَّاهرة جليًا في عدد كبير من محطَّات حياتهم قبل نهاية العقدين الأوَّلين من القرن العشرين، أثبتت قدرة مميزة لهم على التفاعل الإيجابي والبناء

والمحافظ على الهويَّة والوجود، إذا ما قورنَت مع كثير من مفاهيم قوميَّتهم عبر منهج التفكير الخطي الذي سيطر على كثير من سلوكيَّاتهم، وقادهم إلى كثير من ردَّات الفعل عبر سنوات طويلة من عقود القرن العشرين.

فَهَل يُمكن،

❖ بقراءة لتجربة ما مضى من عقود القرن العشرين وما سبقه وما تلاها،

❖ وباعتبار أن المستقبل لم يعد قائمًا على نماذج تراثية مقفلة من الماضي وتجاربه،

❖ وبأن على الإنسان المعاصر الاسترشاد بالماضي من غير أن يبني وجوده على نموذج هذا الماضي،

ممارسة الفكر والتَّفاعل العربيين مع العيش المعاصر، بمختلف أصعدته ومستوياته، على منهج شبكي (منظومي) وليس على منهج خطي؟ وإذا ما كان الحال كذلك، فإن هذا قد يقود العرب إلى عدد من الأسس الفكرية لعيشهم التي من أبرزها:

❖ إن المعرفة لم تعد قائمة على أسس تبنى عليها، بل المعرفة تقوم على شبكة متَّسعة من العلائق.

❖ لايمكن فهم الأجزاء إلاَّ من خلال ديناميَّة الكل، إذ الكل هو الأصل؛ فإذا ما كان ثمَّة فهم لديناميَّة الأصل، بات من الممكن القيامُ باشتقاقٍ مبدئيٍّ لخصائص الأجزاء.

❖ إن سيرورة الأمر، وليس بنيته، هي المنطلق والموجِّه له ولأي تفاعل معه وبه.

❖ إن حقيقة الوجود ليست في العدد، ولكن في القدرة على تحقيق الفاعليَّة.

❖ إن القوة ليست في الغلبة الكميَّة، بل في الغلبة النَّوعيَّة المتمثلة في التمكُّن من تنفيذ المراد.

ومن هنا، فهل يمكن اعتبار العروبة الحضاريَّة، المبنية على حقيقة الهويَّة القوميَّة العربيَّة ومجالات نجاحها الإنساني، منطلقًا عقديًا أساسًا للمرحلة الحاليَّة التي نعيش من القرن الحادي والعشرين، وذلك لما في الممارسة الحضاريَّة من تنظيمات شبكيَّة (منظوميَّة)؛ إذ العلاقات العالمية والدولية المعاصرة تقوم ضمن تكوُّن شبكي (منظومي) تتلاقى عبره الحضارات الإنسانية وتتفاعل فيما بينها؟

وهنا، لابد كذلك، من درس معمَّق ومسؤول لما يمكن أن ينتج عن اعتماد العروبة الحضاريَّة فعل إيجابي للقوميَّة العربيَّة، وما يمكن أن ينتج عن هذا الاعتماد على منطلق العروبة الحضاريَّة من سلبيات وإيجابيات؛ خاصَّة في مفاهيم الحريَّة والدمقراطيَّة والآخر المقبول والآخر

غير القابل للتفاعل والمرفوض من ثمَّ. إنها مفاهيم طالما كان التعامل العربي معها تعاملاً خطيًا، فعاشت في الفكر والممارسة وجودًا مقيَّدًا باختيارين لاثالث لهما، اختيار الاتِّباع أو اختيار الوسم بالخيانة، ضمن مقاييس تعنى بالبناء وليس بالسيرورة، وتهتمُّ بالأسس وليس بالعلائق، وتحفل بما هو قائم وليس بما له قدرات واعدة بالقيام.

استنتاج

النُّهوض العربي ضرورة لمستقبل ناس العروبة وأهلها وأرضها. ولعل هذا النُّهوض لن يتحقق عبر تكرار التجارب المفجعة التي مرَّ بها عرب المئة السنة التي مضت. إنهم عرب التفكير الخطي، والتفاعل مع الأحداث والأفكار والنَّاس عبر هذا المنهج. ولربما كان النهوض العربي العتيد، عبر النَّظر في تجارب عرب القرون الماضيَّة، وعبر اعتمادهم منهج التفكير الشبكي (المنظومي). لقد نجح هؤلاء العرب في تحقيق وجود ناهض، بل رائد لهم، عندما تفاعلوا وفعلوا في قضايا زمنهم وموضوعاتهم عبر المنهج الشبكي (المنظومي)، فما الذي يمكن أن يمنع هذا النجاح إذا ما تعاطى عرب اليوم مع قضايا زمنهم المعاصر وموضوعاته عبر هذا المنهج؛ خاصَّة وأن كثيرًا من الدلائل تشير إلى أن هذا المنهج هو منهج إيقاع الزَّمن المعاصر، وهو زمن الفعل الحضاري والسياسي والعلمي والثقافي لهذه المرحلة، وهو زمن يأتي في كثير من التوافق مع حقيقة التراث والفكر الإسلامي؟!!

❖ ❖ ❖

